المحاضرة الثانية: الفلسفة اليهودية في المرحلة اليونانية.

1- اليهود في مدينة الاسكندرية:

كانت مدينة الإسكندرية Alexandrie التي أسسها الاسكندر المقدوني مدينة عالمية بامتياز، حيث كانت قبلة العديد من الشعوب على اختلاف ثقافاتهم، بل كانت أيضا قبلة العلماء والمفكرين والفلاسفة في تلك المرحلة. هذا لأنها كانت تضم أضخم مكتبة في تلك المرحلة وتحتوي الكثير من الكتب القديمة، وكانت الوثنية الديانة المنتشرة في مدينة الاسكندرية.

حينما باشر الإسكندر بناء مدينة الاسكندرية كان هدفه هو أن يجعل منها منارة ومركز إمبراطوريته العظيمة نظرا لموقعها الجغرافي المهم الذي يقع في ملتقى القارات الثلاث، وموقعها الحربي الاستراتيجي المطل على البحر. لقد كان الإسكندر حريصا، وهو يشيد المدينة، على تعميرها وتأهيلها بالسكان من مختلف الشعوب والثقافات، انفتاحه على كل الثقافات والمعتقدات والأديان ساهم بشكل كبير في استقطاب الشعوب المختلفة. ومن بين الشعوب التي قدمت إلى الإسكندرية نجد اليهود حيث كانت هذه المدينة بالنسبة لهم ملجأ بعد كل ما تعرضوا له في بابل أو ما يعرف بالسبي البابلي حينما استولى نبوخذ نصر Nabuchodonosor على القدس في عام587ق.م.

بعد وفاة الاسكندر سنة 323 ق. م واصل الحاكم سوتار Soter نهج سابقه في بناء وتعمير المدينة، حيث عمل على اتمام بنائها وتشييد مكتبة ومتحف كبرين وأكمل بناء الموانئ مما جعلها مؤهلة لاستقطاب الكثير من الفلاسفة والعلماء والتجار من كل انحاء العالم. واذا كان الكسندر قد منح الأولية لليهود في تعميره للمدينة كذلك فعل سوتار الذي واصل نفس النهج ليس فقط من خلال جلبهم وتوطينهم وإنما أيضا عمل على استقدام كل اليهود السجناء والتائهين وتجنيد المرتزقة منهم في الجيش، وكنتيجة لسياسة التعمير التي منحت الأولية والامتياز لليهود بلغ عددهم حسب تقديرات فيلون إلى مليون يهودي. حيث وجد اليهود في الاسكندرية كل سبل الحياة الكريمة، كما سمح لهم من الناحية العقدية بممارسة شعائرهم دون أن يؤدي ذلك إلى صدام مع الوثنيين.

لم تكن مدينة الاسكندرية مدينة تجارية وحسب وإنما أيضا مدينة ثقافية، حيث كانت تضم مكتبة عالمية تحتوى على ما يقارب 400 مئة ألف مخطوط. وكان يتوافد إليها العديد من الفلاسفة والعلماء. ونظرا لموقعها

الجغرافي فإنها كانت محور التقاء عالمين مختلفين فكريا وثقافيا: الغرب ممثلا في الثقافة اليونانية الرومانية والشرق ممثلا في الحضارات الشرقية القديمة. هذا التلاقي مكن من ظهور أفكار جديدة وليدة تلاقح الفكر اليوناني القائم على المنطق والعقل والفكر المشرقي القائم على الروحانية والتصوف، وعلى هذا الأساس ظهرت مدارس فلسفية جديدة مثل الأفلاطونية الجديدة وشخصيات فكرية مثل فيلون الاسكندري وغيرها التي عملت على ادماج الفكر اليوناني بروحانية الشرق.

إن ظهور هذه المدارس والشخصيات الفلسفية الجديدة كانت استجابة للمشاكل الأخلاقية والفكرية والدينية التي كانت مطروحة آنذاك فرغم حضور الفكر الأفلاطوني والأرسطي بقوة إلا أن أفكارهما لم تستطع أن تحل المشاكل الدينية والأخلاقية التي عرفتها شعوب تلك المرحلة لهذا جاءت هذه الفلسفات الجديدة كحل لها.

على الرغم من أن اليهود كانوا مندمجين جزئيا مع الثقافة اليونانية وأصبحوا يتحدثون اللغة اليونانية وأغلب أسمائهم يونانية وحتى وإن كانت ذات أصل عبراني فإنه تم تحويرها إلى اليونانية، وتقلدوا مناصب سياسية وعسكرية ويساهمون في الاقتصاد والتجارة، لكن هناك من كان ضد تواجد اليهود وضد الامتيازات التي كانوا يحضون بها مما أدى إلى ظهور سخط شعبي ضدهم، حيث ظهرت كتابات تهاجمهم وتصفهم بالغرباء وتنتقد استحواذهم على حقوق مثلهم مثل اليونانيين، وبعض الكتابات تتهمهم بالتنكر لآلهة اليونان وتقليل احترام لها، وهذا ما يعتبرونه على أنه خيانة للمدينة. لهذا كان اليهود في تلك المرحلة مطالبون بالدفاع عن أنفسهم وثقافتهم ضد الانتقادات التي طالتهم.

في حقيقة الأمر أن اليهود حتى وإن كانوا من كبار تجار الاسكندرية ومنفتحين اقتصاديا على باقي الشعوب الأخرى ويتكلمون اللغة اليونانية ولهم ولاء سياسي وعسكري للمدينة إلا أنهم ثقافيا وعقديا كانوا منغلقين على أنفسهم إلى حد الانعزال عن الثقافة الوثنية التي كانت سائدة في تلك الفترة، وهذا الانغلاق يعود بالأساس إلى الاختلاف الجوهري بين الوثنية التي تؤمن بتعدد الآلهة وتجسيمها والديانة اليهودية التوحيدية.

لقد كانت معرفة اليهود بالثقافة الوثنية في بداية الأمر سطحية جدا وكل ما يعرفونه عنها أنها ثقافة وثنية تؤمن بتعدد الآلهة الدائمة الصراعات فيما بينها، وأنها تتكاثر كما يتكاثر البشر، وأنها تجسد على هيئة أجسام بشرية يتم نحتها من الخشب والصخور وتذبح لها القرابين...إلخ لم ترق هذه السلوكات لليهود الذين كانوا يؤمنون بإله واحد ومنزه عن التجسيد، لهذا حافظ اليهود على مسافة بينهم وبين المعتقدات الوثنية.

لكن مع مرور الوقت اكتشف اليهود أن الفكر الوثني الذي يؤمن بتعدد الآلهة وتكاثرها وتجسدها هو في حقيقة الأمر فكر عميق وواع فوراء تلك السطحية والسذاجة الوثنية يقبع خلفها فكر عميق وفلسفة متماسكة ومحكمة، لأن هذه الثقافة التي تؤمن بالأوثان وتعبدها طورت بالمقابل أفكار دنيوية فلسفية، أدبية وفنية راقية، حيث طورت أفكارا حول الإله والكون والإنسان من الصعب دحضها، وكانت لهم طريقة في التفكير دقيقة وصارمة، وتحليلات منطقية وعقلية. لهذا فإن اليهود في هذه المرحلة حين احتكوا بالثقافة الهيلينية لم يصطدموا فقط بالعقول التي تؤمن بالأوثان والآلهة المتعدد وإنما اصطدمت أيضا بأفكار فلسفية راقية حول الإنسان والطبيعة. لهذا فهم لم يعودوا أمام عقيدة وثنية تعبد ما تنحت بل أمام صرح فكري متين ومتماسك.

لم يتعود اليهود على مثل هذا النسق الفكري اليوناني الصارم لأنهم كانوا منغلقين على أنفسهم ومتعصبين لمعتقداتهم بحيث لم يفتحوا مجالا للحوار الفكري مع اليونانيين، وهذه الدوغمائية كانت بمثابة حصن وسياج لهم. بالإضافة إلى أن احتكاك اليهود باليونانيين لم يكن كاحتكاكهم بالثقافات الشرقية من قبل، فحتى وإن كانت الثقافات الشرقية مختلفة عن معتقداتهم إلا أنهم لم يصطدموا بنسق فكري متماسك كما هو الحال مع اليونانيين. فالنمط الفكري اليوناني يهتم بما هو دنيوي، يهتم بالإنسان وعلاقاته مع أقرانه، يؤمن بقيم إنسانية عالمية، يتند إلى تحليلات منطقية وعقلية...إلخ وأمام هذا النمط الفكري الصارم والمتماسك أصبح من الصعب لليهود الصمود أمامه فلم تعد مجدية تلك الحصون والسياجات التي أقاموها من حولهم أمام فكر يؤمن بالجدال والحوار الفكري. فما كان لليهود سوى تبرير أفكارهم ومعتقداتهم ليس وفق منظورهم الإيماني وإنما وفق المنظور الفلسفي المنطقي العقلي. وهذا الاحتكاك بالتحديد ما منح الشرعية لظهور الفلسفة اليهودية، كما أن هذا بالتحديد ما يبرر أيضا لماذا لم تظهر الفلسفة اليهودية حينما ظهرت الديانة اليهودية.

2- الترجمة السبعينية وانبثاق الفلسفة اليهودية:

حيثيات الترجمة نجدها مذكورة بوضوح في رسالة أريستياس lettre d'Aristée التي تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد. حيث يروي أريستياس لنا فكرة وقصة الترجمة التي في تعود في الأصل إلى مؤسس مكتبة الاسكندرية ديمتريوس Démétrios حين عرض على الملك فيلاديلف بطليموس الثاني Ptolémée II (285 ق م- 247 ق م) ترجمة التوراة؛ كتاب اليهود المقدس من العبرية إلى اليونانية.

قصة هذه الترجمة يحفها شيء من الأسطورة، حيث يروي لنا أريستياس أنه تم انتقاء 72 شخصا من أحبار اليهود من كل قبيلة من أجل ترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية تم جلبهم من القدس إلى مدينة الاسكندرية. وفي عملية الترجمة تم الفصل بين المترجمين كل على حده واستغرقت مدة الترجمة سبعين يوما، لهذا تم تسمية هذه الترجمة بالسبعينية نسبة إلى عدد المترجمين ومدة ترجمتها. والمفاجئة أن الترجمات في النهاية استغرقت المدة نفسها والأكثر من ذلك أنها كانت متطابقة فيما بينها على الرغم من أن المترجمين كانوا منفصلين عن بعضهم البعض. في كتابه "حياة موسى" يبرر فيلون الاسكندري هذه المطابقة بين الترجمات تبريرا دينيا حيث يعتبر أن الله هو الذي أوحى إلى المترجمين الكلمات، وذهب أن دقة الترجمة لم يكن بتلك الطريقة لولا ارشاد من الوحي الالهي.

لم تكن الترجمة السبعينية موجهة لليهود اليونانيين الموجودين في الاسكندرية الذي يجهلون العبرية فقط بل كانت أيضا لكل اليونانيين عموما. حيث سمحت هذه الترجمة برفع الغطاء على المعتقدات اليهودية وأتاحت للجميع الاطلاع عليها وبالتحديد الاطلاع على التصورات اليهودية حول الله والإنسان والكون؛ تصورات في عمومها متعارضة مع التصورات الوثنية.

ويعتبر لويس جوليان Louis Julien أن الانتاج الفكري لليهود بدأ مع الترجمة السبعينية. لأن الترجمة أتاحت لليهود الاسكندريين وحتى لغير اليهود وبالخصوص الوثنين منهم اكتشاف أسس العقائد اليهودية التي كانت مختلفة تماما مع المعتقدات الوثنية. فإذا كانت الطقوس الوثنية لها ما يبررها في الفكر الفلسفي اليوناني فإن المعتقدات اليهودية بدورها حاولت أن تجد تبريرا من الناحية المنطقية والفلسفية. وهنا ظهرت بوادر العلاقة بين الفلسفة والدين وبين العقل والايمان. حيث حاول اليهود المحافظة على تراثهم العقدي من جهة ومن جهة أخرى الاستثمار في الأفكار اليونانية التي بإمكانها أن تساعد في ارجاع اليهودية اكثر اقناعا وأكثر وضوحا وأكثر حداثة، وهذا بالتحديد ما ساعد على ظهور مدرسة تقوم على التأويل، ولما كانت التوراة هي ركيزة ايمانهم كان التأويل متعلقا بها، ويعد فيلون أحد كبار المؤولين والفلاسفة اليهود الذين وظفوا هذا المنهج لتبرير الحقائق الايمانية اليهودية. وقبل التطرق إلى فلسفة فيلون ومنهجه التأويلي نتطرق بعجالة إلى من سبقة من بني جلدته في هذا المجال.

3- الفلاسفة اليهود الأوائل:

بما أن الترجمة السبعينية كشفت للعلن عن بعض المعتقدات الدينية وأتاحت امكانية قراتها ومعرفة محتواها ليس لليهود اليونانيين الذين لا يعرفون العبرية وحسب وإنما أيضا لكل اليونانيين، خصوصا أن التوراة تتحدث عن عدة

أمور حتى وإن كانت مقبولة من الناحية الايمانية إلا أنها من الناحية الفلسفية العقلية تحتاج إلى تبرير يدعمها مثل "نزول الله" من أجل رؤية أعمال البشر، وأن "الله يمتلك يدا"، و"استراحة الله" في اليوم السابع وغيرها من المعتقدات، وفي هذا الشأن ذهب الراهب اليهودي أرسطبول Aristobule (150 ق.م) إلى أن هذه الأمور المتعلقة بالله يتعذر شرحها باللغة وفهمها لهذا تم تشبيهها بأفعال البشر لتقريب الفهم للناس، كما ذهب إلى قول جريء حين اعتبر أن أفكار الفلاسفة اليونانيين أمثال فيثاغورث وأفلاطون وأرسطو تجد مصدرها في تعاليم الأنبياء اليهود الأوائل، وبذلك يعد أرسطبول الأول الذي قال بفكرة تأثر الفكر اليوناني بالتراث الديني اليهودي.

أما فلافيوس جوزيف Flavius Josèphe وهو أيضا من مفكري اليهود حاول أن يعقد مقارنة بين بعض التصورات اليونانية والتصورات اليهودية وبالخصوص في المجال الأخلاقي، حيث اعتبر الفلاسفة اليونان ليسوا من الناحية الفكرية إلا تلامذة النبي موسى، حيث أعاب فلافيوس في الأخلاق اليونانية اهتمامها فقط بتحصيل السعادة الدنيوية واهمالها بالمقابل السعادة الأبدية التي نجدها في الحياة الأخروي، لأن اليهودية تحتوي على ما يبرر ويفسر المعاناة التي يعيشها اليهود والآلام التي يصبرون عليها والأعمال الخيرة التي يقومون بها...وهذا التبرير نفسه نجده في إيمانهم المطلق بوجود جزاء وعقاب في حياة ما بعد الموت، في حين الفكر اليوناني يفتقد إلى هذا التصور الذي بإمكانه أن يبرر أفعال البشر ومصيرهم بعد الموت.

لقد كانت هذه الأفكار التي طرحها هؤلاء المفكرين بمثابة إرهاصات للفكر الفلسفي اليهودي وبوادر ميلاد التقارب بين الفلسفة والدين معلنة بذلك ميلاد الفلسفة اليهودية. في المحاضرة الموالية سنتطرق إلى أول فيلسوف يهودي قدم آلاء فلسفية متكاملة وهو فيلون الاسكندري.